54 سلسلة الكتاب الأول

محمد الصلحي

طائر الفينق



قصص

منشورات وزارة الثقافة

54

الكتاب الأول

محمد صلحي

طائر الفينيق

مجموعة قصصية

إهداء

أهدي هذه المجموعة القصصية إلى
كل من وشم البحر حياته بالعشق
و المعاناة، وإلى والدي والمرحوم
عمي إدريس اللذين عمقا شغفي
بالبحر في طفولتي ..وإلى
رفاق الطفولة المترعين بنداوة
اليم على شطآن مدينة
سلا ..وإلى أخي الحسين
والريس أعراب اللذين مهدا لي
ركوب البحر واختبار أبعاد أخرى منه.

كلمة شكر

أقدم شكري وعظيم تقديري لأستاذي الجليل نجيب العوفي، الذي كان سندا وعونا في متابعة مسار هذه المجموعة القصصية بكل تفان ورعاية.

كما أشكر زوجتي حنان لتعبها في رقن هذه المجموعة، ومتابعة كل التعديلات والتنقيحات بصبر.

الإبحار في القصة

تعرفت على صاحب هذه الباقة القصصية، محمد صلحي، منذ حوالي ثلاث سنوات في كلية الآداب- ملحق السويسي بالرباط -حيث كان يوافيني بين الفينة والأخرى، ببعض محاولاته القصصية لإبداء الرأي فيها وتقييمها، ليكون على بينة من صنيعه وليرى وجه تجربته في مرآة غيره .وهذه عادة حميدة لدى كل ناشيء جاد وطموح، يتلمس خطاه الأولى على طريق الإبداع .كان يوافيني بانتظام ودأب بجديد كتابته، مع دماثة خلقية عالية ورقة في الإحساس فائقة، وهما صفتان ملازمتان لكل مبدع حق .وكنت من جهتي أقرأ نصوصه بعناية واهتمام، وأقدم له آرائي وملاحظاتي، كتابة أوشفاها، بكامل الصراحة والمودة، فيتقبلها أيضا بعناية واهتمام .ويجيئ الرد منه في شكل محاولة جديدة يعرضها علي، وهكذا دواليك.

والحق أني كنت أجد في نصوصه وعودا قصصية أصيلة ونزوعا أدبيا واضحا، والمرأ عادة لا يعاود الكتابة ويجدد اللقيا معها، إلا إذا كان عاشقا لها وواقعا في أسرها .وكذلك كان محمد صلحي.

والنصوص القصصية التي تضمها هذه المجموعة تشكل صفوة مختارة مما كتبه الكاتب على امتداد السنوات الأخيرة.

وأهم ما يميز هذه المجموعة من النصوص على مستوى فضائها وموضوعها، هو أنها نصوص" بحرية "يدور معظمها في البحر، مغالبة أمواجه وأنواءه ومتنسمة ريحه وهواءه.

وأبطالها هم البحارة والصيادون الذين يشعر بعضهم ب"دوار البر "إذا غادروا البحر وغابوا عنه .أي يشعرون بما يمكن أن نسميه" نوستالجيا "البحر.

وموضوعاتها تتشكل من صراع هؤلاء مع البحر، وصراعهم مع بعضهم البعض والآخرين بما له علاقة بالبحر وأسراره ودفائنه.

هنا أهمية هذه النصوص واستثنائيتها، حين تقاس بالفضاءات المألوفة التي تتحرك فيها القصة القصيرة المغربية، وهي فضاءات مدينية في الأغلب الأعم.

وتذكرني نصوص محمد صلحي، بالنصوص القصصية الخليجية في كل من الإمارات والبحرين وسلطنة عمان وقطر، حيث يشكل البحر الهاجس الأساس والفضاء الأرحب لهذه النصوص.

وهكذا إذن يبحر بنا محمد صلحي في أثباج البحر.

وهكذا يبحر أيضا في أثباج القصة .ويتسم الإبحار القصصي عند الكاتب، بقدرة ملموسة وشفافة على السرد والوصف، وهما عماد كل كتابة قصصية.

فسرده ذكي ولماح يعرف كيف يغزل الخيوط الحكائية ويحبكها .ووصفه دقيق وموح، يقع على أهم المشاهد والجزئيات وأدلها .وكتابته على العموم، كتابة رشيقة وسلسة، لولا بعض الهفوات التي تشوب صفوها.

ولا أريد أن أطيل في هذه الكلمة، فهي مكتوبة على سبيل التعريف والتقديم، لا على سبيل التحليل والتقييم.

وأترك الفرصة للقارئ ليبحر بدوره مع هذه المجموعة القصصية، وليسبر غورها بنفسه.

وللكاتب تحية التشجيع لمزيد من الإبحار والإبتكار.

نجيب العوفي.

1998

الكونطرباند

يلف المرسى ضوء انبلاج الفجر. ويغمر المكان استعادة الوجود لدبيب الحياة .عند رابية تشرف على النهر، بمحاذاة سوق السمك، ضج" مقهى الدلفين "بالبحارة.

-أهيا، الكلمان(1) راه ممنوع.

صدرت أمرا قاطعا عن رقيب البحرية وهو يخطر بمنامته. عقب الريس ايدر منكسر تعابير الوجه:

- أنا إلا ما بحرتش غدي نخسر معا شي واحد .وأتم كلامه ملتفتا إلى جليسه بوجمعة :يعطيني رزق اولادي ونسلم ليه في البحر وما فيه.

تدحرج الرقيب مبتعدا .انسل من جو مشحون ببذاءة اللسان. علق أحد البحارة ساخرا:

- ممنوع !مالنا خارجين نصيدوا السياسة.

يعرف البحارة صرامة الأوامر. يمنع صيد الرخويات طيلة شهر أكتوبر، لكن" المنزلة "غير مناسبة لصيد السمك وتغري بالمغامرة لأجل الكلمان. ويدري البحارة مدى تحمّس الرقيب «ضريبة الإبحار»: مستعد للتواطئو على خرق قوانين البحر والبر والسماء.

1- الحبار.

تألقت نجمة الصبح في أفق وردي. تأهب الريس إيدر وبوجمعة. إمتطيا الفلوكة .هدر صوت المحرك معلنا عن تحد سافر. وانشق سطح الماء عن انبثاق زبد مشع يغازل بقايا الظلام.

على طول الشط بدت أماكن تمرير السلعة غافية، خالدة للهدوء، لتعج ليلا بالبحارة والمشترين بين الصخور.

طلب الريس الفطور.أخرج بوجمعة، من برميل بلاستيكي، قطعة خبز وقنينة موندا وصب كأسا .سأله الريس بسخط :

- هدا هو الكاشطي(1)؟

- ماعندك لاين عليه وفالغداء السردين والزيتون.

-تكول غادين للمدرسة!

كركر بوجمعة ورد مذكرا الريس :

- متنساش راه حنا غدين للكلمان، شوي وكول مع راسك، والبحر جودو كبير.

- الكلمان آسيدي ممنوع !عقب الريس وبسمة تظلل محياه.

-اسمع آ الريس، عوا (2) كالت" : الرزق ضامنه مولانا وتمارة علاش "ودبا الكلمان موجود وتمارة دالحوت اعلاش.

-كالتها عوا آبوجمعة.

اخترقت" المهداوية "الكتل المائية بانسياب. تضج قوة اندفاع النهر كلما توسطاه .تنداح نسمات شرقية مناوشة في بدايتها الأزرق . بدا التقاء النهر بالبحر صاخبا، مشكلا أفقا من

1- ما يحمله البحارة من مؤونة، وغالبا ما يحدد نوعيتها صاحب الزورق.

2- طائر النورس.

المور. في عيني الريس أحالت الألفة صفحة البحر بساطا يغري بالسير عليه.

أوقد بوجمعة" الفرنة"(3) وترك فوقها إبريق ماء يغلي .لاحت للريس زوارق مندفعة في مختلف الوجهات. عند المصب، شرع في الإبحار برا حيث تخف قوة التيار والموج .تقدمتهما فلوكة الريس بوبان الصحراوي الأصل، يتفاءلون به خيرا .حدسه لا يخطئ" منزلة "الصيد.

اجتازا النهر .وامتد الأزرق متراخيا، أرحم من الزحف الأرعن للنهر .أوغلا فيه، وشملهما علو الموج تدريجيا.

يستعد بوجمعة لإلقاء الحجر عوضا عن الفاس(4) ، ميزته أنه يضبط انفلات الزورق، ويسمح له بالانسياب مع التيار.

الطقس لا يدعو للتفاؤل، إلا أنهما أملا خيرا .البحر أهون عليهما من انقطاع الرجاء في البر.

رسا بمحاذاتهما زورق الريس حمود .يتصادم الزورقان المتأرجحان تحت تأثير قوة الأمواج .يحاول البحارة الحفاظ على مسافة فاصلة بينهما كلما تقاربا .طلب الريس حمود بعض الفحم، وا ستفسره ايدر عن أحوال المرسى :

3- كلمة صحراوية، وبالنسبة للبحارة هي شنكة تملأ بالرمل وتستخدم كموقد.
4 -المرساة .

- كيف خليتوا المارني؟
- بحال ديما، الدخول فالليل والكلمان فالدمة.
- لوكان الثمن فالحوت ساوي مانخسروش وجهنا معهم.
- توكل على الله وما يكون غير الخير.

تباعد الزورقان .صب بوجمعة كأس شاي .السيجارة والشاي، متعة فريدة وسط دفقات البرودة الموجعة.

صخِبَ البحر .اشتدت الريح .تنفذ برودتها لمسام الجلد عبر بلل الثياب .لا يهدئ من حدتها سوى الإنشغال بالصيد.

يحركان خيوطهما المحملة بالترقب .تعلق حبارة .تتحفز أعضاء الجسد لمسايرتها برفق، وتجس لحظات إحساسها بالخطر ورغبتها في الانفلات. تتم عملية التحفز بين شد وارتخاء. يشع لون الحبارة القاني الحمرة فالقا زرقة المياه. تتصادى الفرحة:

- "بشار."

تتردد معلنة البشرى. مفجرة الاعتراف بالجميل للأزرق. تحيل اصطخاب موجه ترنيمة وجدانية، والتعب وجها للشعور بالارتياح، والمغامرة تجديدا لنبع الأمل. وتتوالى صيحات" بشار."

يفتر الصيد .تحل لحظة الاسترخاء للالتذاذ بسيجارة، وشي الحبار، وإعداد الشاي.

يطوي تحرك الزورق، بحثا عن مزيد من الصيد، صفحة يوم حافل بالعطاء .

عند الأفق، مافتئت زرقة البحر ترشف قرص الشمس جرعات متأنية. تحركت" المهداوية "متهادية وسط رجات الموج. لاحت المنارة الصغيرة في رأس الجون. بدت لهما فلوكة متوجسة. غامرت باختراق سد هائل من الموج .لحق بها زورق البحرية معترضا طريقها .زاغت عنه في محاولة للهروب. بعد مطاردة مهووسة استسلمت أمام قوة سرعته .تخبو سرعة الفلوكة، وتنكس رأسها الذي كان يناطح الموج.

قرر ايدر، بعد مشورة بوجمعة، المبيت في البحر. الوقوع بين أيديهم يعني حجز الفلوكة، والتوقف لأجل غير معلوم، وغرامة مالية.

شرع الليل في توضيب انتشاره .طمس بقايا المغيب دافعا بها للتواري .وانتشرت نجومه متراقصة في حضرة سواده.

- لازم غدين يمشيو!

ونبر بوجمعة شبه مستفسر :

- ولكن الدخول في الليل في هد لمنزلة ماشي مضمون! يعلم الريس معنى التأخر بالنسبة لزوجة بحار، فبالأحرى عدم عودته .ملأت أعين أسرته، الطافحة بالانتظار والترقب، سماء الليل البهيم، مشعة بين نجومه.. قريبة ونائية.. نابضة وهادئة ..تمده بالأنس المختلط بالتوجس.

نأت" المهداوية "عن الشط، متفادية اشتداد قوة دفع الموج إثر زحف المد. شكل ارتطامها بالموج رذاذا فسفوريا يضيئ طريقهما. حين ضمنا الابتعاد ألقى بوجمعة الفأس، فأوحى صوت ارتطامه، وهو يفلق الماء، بانسيابه عبر أغوار سحيقة.

- السلعة يمكن تخسر. ذكر بوجمعة الريس.

- نحاولو ندخلو مع الغبيشة.

امتصت ثنايا الظلام زحف الزمن. عصفت الريح نائحة. اشتدت لطمات الموج العنيفة على الزورق تريد اقتلاع ضلوعه. خدر النوم حواسهما، وقذف بالارتجاج، والبرد، والإرهاق، إلى ما وراء إحساس الجسد.

تفجرت حاسة السمع تحت صوت بدد خدر التعب .جالا ببصرهما. انبثق طيف مركب يزحف باتجاههما مطفأ الأنوار. ربما يعمل في الكونطرباند بترخيص من مسؤولي البحرية. مراكب تجرف آلاف الأطنان من الرخويات في مياه الزوارق، لتترك الثمالة.

زعقا بصوت واحد :

- هيه...آالرايس...آ..الرا..يس...

ابتلع هدير المحرك صياحهما. رفع بوجمعة ثنكة، صب فيها البنزين وأوقد النار ليكشف موقعهما. أشعت ألسنتها، وساحت على يده. أوقع الثنكة من هول الحدث. سرت النار في

مقدم الزورق. تمكنا من حصارها وإخمادها. غمرهما صوت الإرتطام ببطن المركب. وجثا عليهما ثقل صمت داكن، رطيب، قاسي البرودة.

شطآن متضجرة

يفقد الفضاء المطبق على سيادته .يخترق أفقه جنوبا ضوء مرتعش" .ضوء شاحنة على الأرجح ."من شدة بعد المسافة يبدو ثابتا عند نقطة انبثاقه، لحظة ولادته من رحم الظلام..

تستدير رأسي للأمام. تختط رجلاي طريقهما بحاسة الأعمى. تقاوم ريح شمالية زحفي. تواطؤ غريب تخفيه هذه الفلاة. يضرب السواد حجابه على الرؤية .تسوطني ذرات الرمل المحمولة بعنف الريح. يصلني هدير الشاحنة. ألتفت. يبدو الضوء أشد قربا.: يجرف معه السواد من أمامه مسرعا في تقدمه. أرفع يدي ملوحا. تتضح الشاحنة لبرهة ..مرقت شاقة الريح.. خلفت زوبعة رملية وهوة عميقة من الظلام..حجبت وجهي. .ولعنت ملة ودين سائقها. إنها الثالثة التي تمر دون اكتراث من بمقصوراتها بي.

تنسكب اللحظات من دلو الزمن. تأخذ شكلها الهلامي. تجرفني مشدودا لذاتي وسط غليان هذه الحياة. يفقد جسدي الإحساس بكثافته؛ ويرتع الطحلب في خلاياه.

كيف أنت يا "أبا الزعري". لابد أن حياة جديدة تتشكل من تحلل جسدك تحت سيادة الموت. تستوطنه الدود. كم من

الوقت تستغرق بداية حياة التعفن؟ لعلها أقصر مما نحياه. ستصير منتنا .وقد لا أطيق الإقتراب منك".آه .. مهما يكن لا أظنك تضاهي نتانة حياتنا هذه"!

"آي ".. فقدت حدس الأعمى وهويت .تلقفتني الأرض الصلدة. وجعني رسغي الأيسر. تخدشت ركبتاي وكفي. أدركت ذلك من الألم . إمتزج عرقي ولهاث أنفاسي بالتراب. يهون على أولاد القحبة تيهي هذا. سعوا وراءنا على الشطآن. غلفوا إغراءهم لنا بوعود زائفة. "القصبة غدي تولد فلوكة.. الحوات رأسماله قصبته .. ما غدي تخسروا والو"..

تتصادى أنفاسي المتلاحقة في فحمة الليل .تتكسر على سواده .تذروها الريح النائحة .تلاحقني الوحدة لفقدان صديق العشرة .قدماي لم تكلا من تحسس طريقهما.

تحمست كثيرا مع " ابا الزعري "للمجيئ إلى الصحراء. عشقنا للبحر قادنا للنفي الإرادي. "بورتريكو" (1) أول محطة لنا. أذهلتنا كميات الصيد .كبرت الآمال فينا واتسع مداها. عوضتنا عن قسوة الطبيعة وبعد الأهل .بعد أشهر انجرفت الأحلام في بالوعة الشركة. استفردوا بنا. صرنا مرهونين لايدري إلا الشيطان لمن . بدأ الأمر بتناقص ثمن الكيلو، ثم التماطل في الأداء.

1- أصلا هي بالإسبانية"Puerto Rico "، تعني ميناء الخير. (منطقة جنوب مدينة الداخلة) .

يناغيني صوت موج البحر .يصلني صداه هامسا .يخفف عني وطأة هذا الحصار .لا أدري هل منكم من ابتلعه ليل الصحراء، مفرزا فيه هواجس الهلع والتيه .يزيد من حدته غياب القمر، وتواري النجوم خلف تكاثف السحب .آه .كان كل شيء جميلا، حتى الأيام الحالكة تنسى بعد أن تروق " المنزلة ".

حدست قربي من تفرع النهر عن الأطلسي .لا شيء يبين. تركزت أحاسيسّي في السمع . أذناي دليلي. يشتد الأنس بمعانقة وجود الأزرق. تتضاءل المسافة بين الشط والطريق. يضيىء بياض انكسار الموج جنبات الشط .تنشط حركة رجلي. أصدح بمواويل رثاء. ابا الزعري ديما في البال. تبزغ أضواء المدينة على الضفة الأخرى للنهر. لا زالت المسافة تناهز الخمسين كيلومترا عن المدينة. "قد لا أجد جثتك ابا الزعري. الضباع والذئاب سيدة هذه البيداء ".

انجلى الضباب. تخفف الأفق من حلكته مرتديا تباشير الصباح.

برزت معالم المكان ..امتداد الطريق ..زحف كثبان رملية في بداية الشاطئ بتضاريسه الصخرية .خفت حدة الريح .قد أنهي المسافة مشيا. جل الشاحنات ستأخذ عكس وجهتي. لن تمر إلا ليلا، في عودتها، بعد تحميل السلعة.

خطر ببالي شاطئ رملي ترسو به الزوارق .ينزل البحارة للاستراحة فيه ليلا وحراسة معداتهم .دنوت أكثر إلى الساحل

حتى أتبين مكان وجودهم .لفني دفء الشمس .تمطيت مستعيدا حيويتي .ضاعفت سرعة خطاي .لابد من نقل ابا الزعري اليوم، وإلا ضاع وسط هذه الأرض الخراب .دفنه بالقرب من أسرته سيخفف لوعتها.

في غفلة مني تحرك شبح شخص عند شط النهر. ركضت. تسارعت أنفاسي .ضاق صدري بها .تجرح حلقي بالهواء الرطب. قاومت متناسيا تعب جسدي.

على الشاطئ اتكأت ثلاثة زوارق، وحول بقايا نار تحلق بعض البحارة .قصدتهم مملوءا بالارتياح .فسحوا لي مكانا. ناولني أحدهم كأسه. أنعشت سخونة الشاي كياني. سألني أشدهم سمرة عن مقصدي.

أوضحت لهم أمري .علق شخص كهل:

- الرجل مات البارح .وضروري نديوه دغيا.

قلت:

-ممكن ..بورتريكو "بلاصة مزيانة للتحراتـ(1)

-تنظن فلوكة وحدة كافية لينا.

أمدني أحدهم بلباس البحر. دفعنا الزورق لصفحة النهر. تهادى مع تدفق الموج. وولينا شطر البحر باتجاه ابا الزعري.

1 - الخروج إلى الشاطئ الرملي بالزورق.

طائر الفينيق

هل نملك دوما قدرة الحكي عن ذواتنا؟

بالنسبة له، تخلى عن أي عامل يشده للتأرجح في اتخاذ موقف معين. سلمني تولي هذه المهمة واختفى. من شهامته ترك لي حرية القرار. اشتد نبض حياته داخلي. صممت على إلقائه خارج كياني. ارتأيت أنه من الأنسب قذفه على امتداد الشطآن حيث مرتعه، هي أصدق من يحتضن ذكراه.

يظن أحيانا أنه محكوم بقدر طائر الفينيق. يخترق زمنه المقيت. ينزف كل بذرة حياة فيه. يعيش لا وجوده، يحس بالفراغ، بالعدم، يكتنفه. تدريجيا ينفض عنه سيمة الفناء. يبدل جلدته ليخرج شخصا ملتئم الجراح، معافى. بشيء من الوهن يعيش نقاهته .يشعر بخلق جديد يركن في زوايا جسده. يحمل جيناته القديمة. يعيد تشكيل نفسه في أي لحظة عجز أو تيهان وسط وجوده السديمي. تتقيح مشاعره ليبرء من تعفنها، و يقبل على الحياة بحلم جديد.

استقل بعمله. مصور تائه بين الشطآن .يجهد لخلق بطاقات تذكارية عن هذه المدينة الصحراوية-البحرية. عشقها. ارتوى من نسغ ولهه بها .حقق بعض مساعيه. وسد القليل من متطلبات عيشه.

يتعمد في نهر الحياة. يتركها تجرفه مع هيمانه. يستوطنه العجز لحظة خلوته بنفسه. يعاني مرحلة مخاض قاسية. يخرج منها بنكران الذات، وخرق كل ما يحيط به عبر آلية النقمة المتولدة فيه .

لم يطمع في رغد العيش. أخذته الأيام غفلة. استغرقه انسرابها، تواليها الأرعن، تجددها. وجد نفسه يخوضها طوعا وكراهية.. يختلط لديه تفحص مجرياتها بإهمالها.. تقوده هواجس غامضة لأفق غير معلوم.

أمتع لحظاته تجلت في مجالسته لمعشوقته" رحيل". يقفز لحضنها. دوما متأهبة لاستقباله .يخلد للهدوء بين ضلوعها. يستطيب دفء الشمس ونسمات البحر البليلة. ينشدها لواعج قلبه زجلا :

العشق ليـــل وطيفك نجومـه
كيف تسبا العين العاشق لا تلومـه
تيمت فهـواك ايـام وليالـي
بكلام الحاسدين اخيك ما يبالـي

شكل قدومه" لأفتاس" (1) حدثا مفرحا. بعد زهرة التي حلت بمطعمها المكون من خيمة، استقر بيننا بآلة تصويره. بحكم عملي كمحاسب لدى شركة بحرية، أقضي جل وقتي بالشاطئ لتسلم السلعة، ربطتني بـه علاقة حميمة. يخلو

1 - شاطئ صالح لإبحار الزوارق، يقيم به البحارة.

النهار من البحارة فيأتيني بشغف طفولي بريء. يترك لدي آلته ويقفز إلى الماء. يندفع بين الموج المتقلب. يخترق حاجزه، وتصرخ حركاته بالفرح، طليقة، مرحة.

الرياح تشطف نثيت الموج وتسحبه جهتي .يغمرني.أستشعر ملوحته على بشرة وجهي وهو يجف. أتلهى بحبيبات الملح.. أخبرني يوما أنه يعشق لو انفلت البحر من عقاله، ولم يعد خاضعا لسلطة الطبيعة، ويتحرر هو من سلطة حيوانيته البرية لينزلق بين كثافة ذراته، متوحدا بزرقته.

ينحسر المد مسويا السطح الرملي. يتمدد جسده النحيل في تجويف صخري. يقتطع جزءا من مساحة بها برقع ظلال مخرم بأشعة الشمس .تنغرس قطرات الماء بصوت مكتوم في الرمل. الرطوبة تنعش خلاياه. تتسلل بخدر لذيذ إليها .يسبر المدى الممتد أمامه بعينين مطفأتين .ويحلم.

يفتح سكينه .ينكث الطحالب وبلح البحر .يخط رسوما بيد غير دربة .يملأ كفه بالرمل الخشن .يضغطه .ترشح نداوته بين أصابعه .يفرد راحته .يتأمل بقايا الأصداف .تطوق نظراته الشظايا .يحاول استكناه تاريخها البائد .يجهد لإحيائها في مخيلته .تمتلئ حياة، أشكالا باهرة ونادرة.

يكشف له الأفق عن الزوارق .يصعب عليه تمييزها .ينسحب خارج مكمنه .يقي عينيه من أشعة الأصيل .يدقق النظر .تبرز بعض معالم بحارتها .يسرد أسماءها :ميمونة، الصويرية ..ثم ينطلق حثيث الخطو.

يخوض في سروح الموج .يركض .تتقافز القطرات ندية حواليه .ينعشه ارتطامها بوجهه .يلعق ملوحتها مستطيبا مذاقها الحريف .ويمتد الشاطئ رحبا أمامه.

تلوح خيام وبيوتات خشبية .يتقدم بحذر فوق صخور مسننة.

يرتقي رابية .يحمل من الخيمة آلة التصوير .يقرفص منتظرا دخول البحارة .تحتويه عجعجة موج زحف المد .تسوي أصابعه لفافة حشيش .يدرجها .تأخذ شكلا مخروطيا ..يتأملها بأناة ..يثبتها وراء أذنه ..ويلصق عدسة آلته بعينه اليمنى سعيا لجذب الزوارق إليه.

تتفتق نفسه عن لعنة تثبيت سيرورة الأشياء، الذوات البشرية، الكائنات البحرية و البرية، النباتات ..مهووس بالتصوير والتحنيط .بداخله تمور خشية انفلات العالم موليا أدباره دون رجعة.

بهدوء يشعل لفافته .يمج نفسا عميقا .يكتم أنفاسه لبرهة، ثم ينفث الدخان بتلذذ فيستوي مزاجه ويروق.

عن بعد، يخوض في الماء ثمانية أشخاص .يحمل اثنان منهما" هزدوز".(1)تصارع ميمونة لحظة امتطائها موجة مناسبة .يستقرئ الريس هذه اللحظة الموتورة. يلاعب زحف الكتل المائية .تتقدم صاخبة في تشكلها لتتفجر ببياضها المزبد على الشط .تعتلي الفلوكة المناسبة منها. يوازن الريس قيادته مع قوة دفع الموج .قبل الانكسار تنسحب ميمونة منتزعة هدأة وسط صخب الفلك. ثم تخترق سطح الماء بقوة لترسو بالشاطئ. يحيط بها أصحاب "هزدوز" مسرعين. يقفز البحارة لمساعدتهم. يثبتون معا "هزدوز" في جؤجئ ومؤخر الفلوكة. يخطفونها من بطش الموج، ويتحركون تحت ثقلها متراقصي الأجساد.

هاته اللحظات شكلت عمق وله لديه. يقتنص في صوره الصراع المضمر للإنسان، تحدياته، واجتراحه للمستحيل .يأتيه البحارة ليطلوا بأعين هادئة على لحظات منتزعة من نبض حياتهم. يقتنون صورهم بشغف ملؤه التباهي والإعجاب.

1-"هزدوز "كلمة تطلق على عصا غليظة يتعدى طولها مترين ..وتستخدم لرفع الزورق عند إدخاله اللإبحار من الشاطئ أو إخراجه .وقد تكون الكلمة تركيبا لكلمتي" هز "و" دوز."

من أحاديثهم تولد حلمه و تنامى. يرف قلبه لملاقاة جزيرة غير آهلة.. يسد فيها احتياجاته ببساطة.. حين يجوع يلقي بخيطه ليصيد حسب حاجته وشهيته. أقام حلمه على إصلاح الفلوكة "رحيل".. مهملة.. منسية من البحارة.. غاب مالكها و لم يعد يذكرها.. بعض ضلوعها مشروخ.. طلاءها تآكلته ملوحة البحر وحرارة الشمس.. عمل عبد القادر جاهدا لتجديدها.. مدفوعا بشغفه بها.. آملا أن تلاعب الموج يوما ما.

ترسخ في ذهن البحارة أن ب"رحيل "روح شرير. تسببت في ضياع خيرة الرياس. تعود بعد كل فاجعة لتتلقفها الشطآن. استقر بها المقام أخيرا هنا. ونفر منها الجميع متطيرين من ذكرها.

بدت السماء في الأفق خمرية اللون. تطوف فيها مزق غيوم. على الشاطئ درجت بعض الطيور الليلية. تدب في" أفتاس" روحه بعودة البحارة. تشتعل أنوار الخيام.. يخترق الجلبة نباح الكلاب.. وفي الجهة الشمالية احتوتنا خيمة الرايس خليفة. يسود بيننا جو النكتة والسمر.

يدخل عبد القادر وآلة التصوير متدلية بشريطها البني من عنقه. أطل علينا وجهه الداكن السمرة، بعينيه المدغمتين، وأسنان يخيم عليها سواد التدخين. تدبر لنفسه مكانا عند الباب. سأله خليفة عن صورته. رد عليه بتبسط :

- مالقيتهاش أ خالي خليفة.

- كول ضيعتيها .وهدا ماشي معقول .وأردف مداريا انفعاله. التصويرة راه فيها شخصية مولاها، ماشي غير ورقة صافي.

- غادي نصورك وقت ما تبغي بلا فلوس آرايس .هدا حقك علي.

انفرجت أسارير خليفة، وقدم له كأس شاي.

لام كحيل المصور لنكرانه الجميل والمساعدة، حتى أنه لم يفكر يوما أن يهبه صورة مجانية. رد عليه عبد القادر دون تحرج :

- المعاونة ديالك بحال طحين أمريكا، تتعطيك خنشة وفوسطها مشكلة.

ضج البحارة بالضحك .تعودوا طرافة حديثه، فيستدرجونه بالمشاكسة.

وسط حديثهم، طلب عبد القادر من سائق الشاحنة أرقام التيرسي. فسأله خليفة مازحا :

- التيرسي حرام ولا حلال آعبد القادر؟

- حلال آالرايس.

- علاش؟

- حيث الخيل تيعركو فيه.

وحكى السائق عن عامل بالفرن ربح في التيرسي، ومن فرط فرحه رمى بثيابه في بيت النار للتخلص من همه، وكانت الورقة في همه هذا.

كعادته يستهين عبد القادر بمفاجآت الحياة .ويتخفف من عبء اللحاق بها.

حين غادرت" أفتاس "صحبة عبد القادر، آخر مرة رأيته فيها، قال لي والشاحنة تطوي الطريق، أن من يطأ هذه الأرض" إما يروم الما ولا يهزو الما."

بعد قضائي شهرا في مهمة لأجل الشركة بأكادير، عدت، وداهمني خبر ركوبه" رحيل "واختفائه .

قبل لحظات انكسار الشمس، يعيش "أفتاس" سكونه في انتظار عودة بحارته .حلقت النوارس مكسرة زعيقها على صخب الموج. يفتق حضورها أنين مصورنا من حال الدنيا وهو يردد عبارته "سبحانك يا مقلب القلوب."!

نذير النورس

عاق ..عاق..

صيحات نورس يستعيد روعه تردد شح البحر. تحويمات هي ضرب من الضجر تخترق فضاء الساحل. يتقدم سرب نوارس متفكك. تتسع رقعة تحليقه .ينفرد كل منها باتجاه. زحف مشوب بالحيرة. تفقد التحويمات طلاقتها، مرونتها، وتتلاشى ليونتها الانسيابية. تقع المزبلة في مجال رصد النوارس، فتهوي إليها متثاقلة.

تتابع رشيدة المشهد مرجوفة الوجه. تثقلها أحلام مترهلة. "الله يجيب اللي فيها لخير. "رافقها دعاء السطاتية يوم قصدت شركة" الدكمار " المختصة في تصدير الرخويات .خلال شهر دجنبر غرقت السوق بالسلعة .تواصل العمل ليل-نهار بعد شهري الراحة البيولوجية.

ولجت رشيدة فضاء عملها الجديد.. تغزل أمانيها.. وتغذيها من راحة الضمير.. "شحال من زبالة ولات جامع".. أمل سندها في أزمات انهيارها، وشدها لحلم بدأت بوادره في التشكل.

ضج المكان بالحركة، وأزيز آلات التبريد، وضوء النيون الكابس على حركات الأشخاص. ينخرط الرجال في تخليص" أزايز" (1) من كيس أمعائه اللزج، المدبوغ بحبر قاتم السواد ..ثم يصففون الكتلة الرخوية بأرجلها الثمانية المليئة بالمحاجم التي لازال بعضها يلزق.. يضعونها في أوان من الألمنيوم تدفع إلى ثلاجة للتجميد. لزمت رشيدة مكانها بالقرب من إحدى العاملات.. ركزت انتباهها ..تتابع الحركات المتواترة.. تلتقط تفاصيلها.. الأمر سهل.. تنظيف صناديق بلاستيكية من لزوجة وسواد حبر الحيوان الرخوي بعد إفراغها.. مع شيء من السرعة في أداء العمل.

تمتد فترات الوقوف، ومعها تتسرب آلام مبرحة عند الظهـر و الرقبة، شبيهة بتمزق عضلي، تنتشر في الجسم مفجرة نوبة دوران تستوطن الرأس. تقاومها رشيدة بكل مالديها من جلد. تحسها أرحم من الاستلقاء تحت أجساد تهصرها .تعتصر كل عضو تطاله منها .فتشتعل آلام لا تطاق في الحلمة، والشفتين، وكل موطئ للشهوة.. في الجسد والروح.. تطفح الأعضاء بتورم لا يبين.. تحسها مشوهة.. متضخمة بشكل مضجر.

-االأخطبوط

هان أمرها الآن .انتشلت نفسها من دور لا يعلم مقتها إلا من وصمتهم بدعارتها. أجواء تبتلع الفتيات، تغتصب كل ماهو جميل، تنهش أجسادهن الغضة طلبات الرواد، وتفني معها كل إقبال على الحياة.

تعتاد رشيدة العمل. يصير أكثر يسرا. تنفلت من الرقابة الموسومة بالتعليقات. تزحف الفطريات بين الأصابع .يطفح الالتهاب. يرشح الدم من كثرة الحك. لا بد من اقتناء الدواء آخر الشهر، والحرص على إبقاء مبلغ لوضعه في يد الشاف لضمان الاستمرار إن هم صرفوا بعض العمال. لم يتسن لها بعد تقدير مقابل عملها. "ما يهمش، فلوس الحلال فيها الخير والخمير". ورضيت بإقرارها.

عاق ..عاق..

يصوت النورس زاعقا أنها "الموفيطا" (1) يدرك البحارة قوة حدسه، وإيحاءاته .يعرفون اتجاه الريح من وقفته، حين يواجهه برأسه تفاديا لفقدان توازنه .يقتفون أثره مخبرا عن مكامن بعض أنواع السمك بتحليقه فوقها ,رنة صوته الجذلى تحمل البشر .بزوغه في علو البحر بشرى لكل من أضناهم الحنين إلى البر .صوته المضجر يعلن حالة نكد له قبل غيره. رشيدة صارت تدرك رنة نكدها من الزعيق النورس بعد أن أخبروها عنها.

1- Le mauvais temps ،وهي الحالة التي يكون فيها البحر سيئا للغاية .

يتنامى شغفها بالعمل!! تعودت عليه.. صار كل حياتها.
ولم تدع فرصة لانسياب الأيام فيه [illegible]

في غفلة منها تتناقص السلعة: ويزداد بين العمال التوجس
من مصير غير معلوم.. ينفرط عقد زميلات العمل.. ويطالها
قرار الاستغناء عنها. تنال مقابل عملها أربعة وعشرين يوما
بخطى متباطئة تتجه قاصدة [illegible] يغص حلقها بصوت ثقيل
على النفس.

عناق

بانوراما من شاطئ الفارو

فضاء مصعوق بالرهبة والسكون هي الصحراء: تعانق في امتدادها البحر: هذا الوجود السرمدي: حضن مليء بالدفء والحنين: مهما تمر بك السنين: حين ترتمي بين ثناياه وتلج زرقته: تغتسل من ثقل الزمن: ويشملك الإحساس بطراوة الحياة.

أخطو معرقلا بريح هوج: تتميز عند الأصائل بقوة هبوبها من الشرق. تنبثق زوبعة رملية آخذة في التشكل: باقترابها تبرز معالمها كاملة: تبدو كبرج ماسحة بتلابيبها مساحات من كثبان رملية: تنسحب جنوبا: ثم يبدأ طولها بالتقلص: وتتناقص سرعتها مبتلعة معها شكلها المخروطي: منزلقة نحو التلاشي:: فتجر معها رغبتي في امتطائها والتيه عبر هذا المدى الرحب:.

أنثر خطواتي على جنبات هذه المفازة الغبراء : يتملكني حب لها تعتوره الرهبة:

خلفي طفت أضواء الإنارة العمومية على الجزء الغربي من المدينة: تنسحب ملامحه الأخيرة بتقدمي جهة البحر: تؤنسني ارتجاجات رأس قصبتي: تبدت صومعة الفارو بكل جلالها: ملأ رئتاي هواء البحر: منعشا: طريا: يتصادى تكسر الموج :انطمست

ملامح المدينة وانبثق ماء البحر اللازوردي، مبعدا عني الإحساس بالوحدة المتربص وسط هذه الفلاة. ملأتني توقعات عطايا البحر بالبشر، وعبثت بجسدي لوعة اللقيا .امتلأ الجو برائحة البحر، وبدا الهواء مشبعا بالرطوبة اللذيذة.

ارتفعت متاريس رملية، مقبرة بحارة مجهولي الإسم، كلما لفظ البحر واحدا طمروه دون شاهد يثبت هويته، ولا آيات تطمئن روحه. تشعر أنهم عاشوا لأجل ذواتهم، غير آبهين بنهاية تبقى واحدة وإن تعددت شكلياتها. "الوحدة علامة ملازمة لأغلب البحارة" عبارة كثيرا ما رددها كمال متأملا حياته.

عند نهاية الزرقة البلورية للسماء، إستقر سحاب رباب متلقفا بقايا قرص الشمس المخضب بحمرته، إغتال فيه صيرورته، فأفقد المغيب شاعريته.

حتى ونحن أطفال، أبدعنا طرقنا لعشق قرصها، تتلقفه أعيننا دافئا من خلال قطع زجاجية خضراء أو بنية اللون.

أتقدم بخطوات تمتص الرمال ثباتها .برزت خيمة زروال المتاخمة لفاصل البحر .انحدرت الشمس أكثر فغامت صورتها .توارت مخلفة سماء خمرية .برزت نجمة المساء، بهية وسط هذا العراء الممتد حد عنان السماء، يقابلها صنور القمر قبل أن يكتسي ضياءه.

بدا زروال مقرفصا ينظف الشباك مما علق بها من شوائب. بجانبه تمدد كلبه يمسح خطمه بقائمتيه. لمحني واقترب هامرا. داعبت رأسه، ثم سبقني جهة زروال الذي صاح مرحبا بقدومي:

-تبارك الله على ولد لحسن .. اليوم فنهارك.

-ضروري لواحد مع هد لبحر يكون موجود .احنا داخلين الليل آالرايس ..ومنعرف شنو مخبي.

أسندت قصبتي على الخيمة ونزلت قاصدا الشاطئ .عند انكسار الموج وقف عبدالإله ممسكا بقضيب حديدي يتجاوز قامته، مستعينا به لتثبيت الشباك وسط الموج. عند صخرة بالشط حفرت لإخراج ثنكة طعم طمرتها البارحة .لفني زنخ الطعم-السردين مفجرا في التحفز .حملتها وقصدت الصخر بحثا عن السرطانات.

أنرت" التريك" (1)مبعدا الظلمة الخفيفة لزحف الليل. ما إن باغت النور السرطانات حتى تحجرت في مكانها. إلتقطتها ملقيا بها في سطل بلاستيكي. عند الجزر تنتشر بوفرة، خاصة بالليل. تنقلت بين الصخر. استحال عبد الإله طيفا مع تبلج إشراقة من ضوء القمر. يتشرب جسدي برودة بداية الليل،

1- مصباح البطارية.

ويولد في انبلاج الموج بنوءة هوس الصيد. إنه إعلان أولي عن تصاعد الهمة ضروري يكونو بداو تيجيو"

- حصلت على كفايتي من الطعم صعدت وهدة صخرية. تلقفتني هبة ريح الرؤية غائمة ظليلة: ومن خلالها ينوس نور الخيمة:

دلفت: استقبلني فحيح وابور الغاز الذي يملأ الخيمة: مبددا الرعشة التي يبثها صدى الموج: فيولد دفء من ناره المتناثرة على حاشية الإبريق:

يتحدث عبد الإله بصوت منفعل: إلى والده حول تأخر الشركة عن الأداء:

=زوج صنادق حسبوهم بنص ثمن!

=احسن نبيعوهم فالمدينة لمرة الجاية:

=عدين يمنعوا علينا الكاشطي:

تدخلت مقترحا:

-شايروهم حتى تشدو الفلوس: وساعتها مادفعوش لهم السلعة:

-فاريين حسابهم: رد زروال ثم أردف =ماعمرهم دفعوا الحساب كامل:

قال عبد الإله بتوتر:

الي نهار غادي ندفع منهم شي واحد تحي وما يجيب ليه حد اخبار::

ختم كلامه وهو يوقد سيجارة ثم استغرق في الصمت:

ناولني زروال كأس شاي :احتضنته بين يدي: باحثا عن تجميع للحرارة: بدأ صمت عبد الإله مشحونا: دبقا :في عمار هذا العمل المجهول الغايات: تبدو جل المشاريع قبض الريح: يتعلق الصياد والبحار بمزاج أصحاب الشركات: فتصير كل أنواع الفتك بهم مستباحة:

ودعتهما: استقبلني طقس ساكن شفاف: مع الليل تهب النسمات اللينة: فتضفي على السكون وحلكة الليل نبض الحياة: وجدت الكلب متناوما: نظر إلي بكسل: فعاد ليسقط رأسه: حملت القصبة والسلة: تحركت مهتديا بضوء الفارو المتناوب على الظهور والاختفاء: تطوف في السماء مزق غيوم حاجبة بهاء نور القمر الذي يخطط لي طريقي:

من جهة المدينة انبثق ضوء رخو لسيارة قاصدا الفارو: يختفي أحيانا وراء الكثبان الرملية: ثم يظهر ملتويا: مغيرا وجهته أكثر من مرة بسبب غياب طريق معبد :أتبع في سيري تلعة مطلة على البحر: حتى لا أضل في رمال هذه الفلاة التوه: أشعلت سيجارة: تزحلق دخانها مكتسبا زرقة السماء: أخذت ملامح الشاطئ في الانجلاء: أول ما أعلن عنها انكسارات الموج المشعة: ثم تراقص نار تبعث ضوءا زهوا :تبدت بالقرب منها أطياف أشخاص يخطرون :أسرعت متلهيا بالنظر إلى هذا

الإحتفال العفوي بالصيد، الجامع بين العشق الدفين وطلب الرزق الصاعق.

صادفت أحمد الدكالي . يبدو أنه وصل لتوه .وجدته منشغلا بإعداد قصبته، حييته، وخطوت مبتعدا لاختيار مكان مناسب .بدا الشاطئ كافيا لاحتضان مئات المهووسين. اقتربت من الصويري، الأب الروحي للصيادين والبحارة، ريس بعمر البحر، مربوع القامة، أميل للقصر، عميق السمرة .وقف إلى جانبه الريسان أعراب والحسين، يأتيان فقط للسمر والمنادمة. سلمت عليهم. سألني الصويري هل معي بعض الطعم .كشفت له عن الثنكة، راز السرطانات والسردين، وعلق :

-جاي معول، يحسن عوان لولو (1) معاك.

-انت مخلتيه ارتاح لا فالفوندو ولا فالكشط.

تركتهم وهو يسحب خيط التلويح من البحر، بعد أن انتقيت له بعض الطعم.

شكلت حفرة لتثبيت قصبتي .غرستها .مررت الخيط في حلقاتها. شبكت صنارتين، ووضعت الطعم فيهما. انتعلت صندلي البلاستيكي، وشمرت سروالي عن ساقي. اقتحمت الماء. استقبلني دافئا. فأل جيد للصيد. يصلني اصطفاق ظلال البحر معلنا عن تقدم المد. تتدحرج سبائخ زبدها علامة على حدة انكسارها.

1- Bar Marcheté نوع من السمك المطلوب في الصيد.

بدأ لولو مداعبته اللطيفة .ينتر بقوة .لا يغامر بابتلاع الطعم قبل الاطمئنان إليه .كثيرا ما ينجح في استلاله مما يستدعي دراية فائقة لصيده.

تتسلل رعشات الخيط عبر السبابة إلى جسدي. تحفزني، وأنشد إليها. أنجذب إلى عمق اليم بخيالي. تنتفض دغدغة بداخلي، قوية، خصبة .أتتبعها بإيحاءاتها .إنه الصراع المشفوع بالعشق.

علقت إحداها، ينعطف رأس القصبة كلما حاولت سحب الخيط، ينقل إلي حدة المواجهة. تتالت خفقات قلبي. إنها "كوربينة ".(1) صرت معزولا عما حولي، مغموسا في لذة الصراع .تذكرت قول الصويري "الدنيا بحال الحوتة، خصك ما تشدش معها، اعطيها بالسياسة وغدي تجيك على قد النصيب ديالك فيها".

تقدمت في الماء. أنعشني. تجت سلطة تعنتها، منحتها الخيط بقدر، ثم شددت. بدت أقوى مما تصورت، طاوعتها، أحسستها تخترق جوف البحر، ساحبة ما في البكرة من خيط. في لحظة سكنت حركاتها. يحكي الصيادون أن هذه السمكة، رغم قوتها الخارقة، لا تقوى على الاستمرار في المواجهة، فينفقئ قلبها غيضا.

1- Bar Marcheté نوع من السمك، يمتد صيده بالأقاليم النوبية من مارس إلى شتنبر، قد يصل أحيانا وزن الواحدة إلى 100 كلغ.

انعطفت ثانية بقوة أكبر: إلى درجة انعطاف القطبة. ولولا تداركي الأمر: لم تعد المبادرة بيدي. كثير من الصيادين دفعهم اليأس أمام تعنتها، في مواقف حرجة: للشد معها فيتقطع الخيط. لا يقوون على مقاومة لوعة الهزيمة. هدأت. سحبت قوتها، صارت حركاتي أكثر ثباتا. شرعت في التراجع شيئا تحت الخيط، مستغلا استكانتها. طفا جسمها الأبيض لما انحسرت عنه آخر موجة. لبطات مشوة، مغسولة بضوء القمر.

مع قرب انتصاف الجزر تفرق بشائر الصيد. الجميع منتشون لوفرة [illegible]. تفقد كل واحد صيده. دارت الأحاديث، وأضرمت نار [illegible]، لم يلتفت أحد [illegible] بلحمها الطازج (1).

البحار [illegible] الصيد [illegible] نفسه أمام البحر [illegible] وإن غاب [illegible] يحس نبضه، أدق حركاته، ويصيخ السمع لاصطفاق موجه. [illegible] بالنظر إليه [illegible] قهوة أو شايا [illegible] تجارة:

وحين [illegible] البحر [illegible]

[illegible] أعرف: [illegible]

[illegible]

أكثر [illegible] أو

(1) غريب: في حياة [illegible] تجارة و[illegible] الصيادين [illegible] إنسانا مهووسا بالبحر والصيد مثلها:

قلما يمكن مصادفتها، ومن النادر إمكانية التعرف إليها، قد
تتحرج من الاقتراب منها، أو مخاطبتها. سنحت لي الفرصة
بشرف مجالستها يوما صحبة الصويري . إنسانة مستهترة بقدر
ما هي جادة وصارمة في حياتها .يومها رافق حديثنا المزاح،
انشرحت وحدثتني بثقة أنها : طلقت العهارة وامتهنت الصيد،

تحلم بامتلاك زورق، وربما الإبحار على متنه. رددت كثيرا
إن احترافها البغاء سببه طلب لقمة العيش. أحيانا تعزي ذلك
لرغبتها في الزهو. ولما وجدت هذه اللقمة والزهو في الصيد،
امتهنته وارتبطت به بعد أن خبرته، فتحول إلى عشق وهوس.

كنت أشك في أنها تخلت عن ماضيها، على الأقل فيما
يرضيها.

اقتربت منها وصاحت بي :

=جابك الله::

تخلصت من القصبة والسلة، انحنيت وقبلت رأسها كما تعودنا
معها على طريقة أهل المنطقة .تستلطف ذلك، يعوضها عن
بنوة مفتقدة .وقلت :

=اجنا فالخدمة خالتي،

=خصنا شي عويفية الله يستر عليك،

تدبرت أمري بما معها من فحم، وأوقدت النار، فاحت
رائحتها مانحة الجسد الشعور بالدفء، وضعت إبريق قهوة،

حفرت لنفسي في الرمل. يختزن حرارة النهار تحت طبقته البليلة. تمددت في حفرتي بجانبها .تراقص النار يدفئ أوصالنا في صراع مع نسمات منتصف الليل. غمرني إحساس فاجر باحتضان جسد أنثى. ربما فكرت هي ذاتها بدعارة في افتضاض وحدتها. فكرت بروح أسيانة "الهجر أقسى من صقيع الصحراء والبحر".

هل قدر أغلب من عشق البحر أن يقاسوا الوحدة والهجر؟

الريس الصويري مثال حي. هجر أسرته لأجل البحر وحياته. وكثير من الذين عرفت لا يذكرون آخر يوم رأوا فيه أهلهم.

سكبت لها ولنفسي القهوة .يرشق بخارها وجهينا بنكهتها. تناولت "فاطمة الحاج "سيجارتين من بين نهديها المرحرحين، منحتني واحدة، أشعلتها من نار الموقد اللافحة بعد أن خمد لهيبها. لطعم السيجارة مذاق الجنس. تمج من سيجارتها بعمق وتنفث الدخان باتجاه البحر. التفتت جهتي :

-ولد سعيد ما دفعش للبحرية فلوسهم؟

-باقي ما رجع من السفر.

-لاقيين السفر حجة.

اعتدلت في جلستي :

- البحرية كلهم موقفين فلايكهم.

-حتى لوقت آش؟

-طالبين الزيادة فالثمن.

داهمنا حضورالريس الصويري بصخب :

-الناس زاهية وحنا ما جايبين اخبار.

-يلعن بو الوعد.. وصيت عليك احمد البارح.

قدمت له كأسها وسيجارتها. تناولهما وجلس ملتصقا بها. لف ياقة معطفه البلاستيكي حول عنقه. سألته" فاطمة الحاج" :

-حتى انت ما بحرتيش؟

-اولاد الكلاب بغيين يردونا فآخر ايامنا شمايت.

-واش نويين تديرو؟

-نقلبوا على شركة أخرى.

قالت والجدية بادية عليها :

-غادين تحصلو معها فنفس المشكل.

رد بتكلح :

-السوق تيفرض اللعب ديالو، وخصنا نبحرو ونبيعو، وكل واحد تيكول "طاعة للحنطة"..(1) وحنا الحنطة على الراس والعين.. ولكن ماشي مع هاد التريكة الناقصة.

نبهته" فاطمة الحاج" :

-ولكن هما غدين يبيعو ويشريومع غيركم.

-ما كاين ولد المرة اللي يديرها.

1- المهنة.

خبر عبد الصماد، الذي حضر من ... الحديث :

= سمعت بلي شركة Pisca واقفت ترايد خمسة ديال الدراهم

فالكيلو .: والبحرية في باربا ... ما غيتش

= الله يعفو الرجال.

داري الصويري انفعاله: لاطفته "فاطمة الحاج": قبلته من خده: يؤرقه توقفه عن الإبحار، حين لا يبحر يصاب ب "دوار البر": لا يعرف تزجية للوقت، فيؤنس نفسه بليالي الصيد على الشاطئ:

اقترب أحمد بجعد صادحا بأهازيجه الشعبية، اشتركنا معه في الترديد والضرب على الأيدي، نهضت فاطمة الحاج نافضة عنها خمولها، اهتز جسدها حيوية وإغراء. قام الصويري راميا بكل شقشقة الدنيا: انخرطنا في الرقص: إنها أهزوجة الجسد: الفتنة اللامتناهية الرابضة فيه نحو الانعتاق. التف الفرح حول سمرنا وعانقت الأجساد انطلاقتها.: يناغينا صوت الموج.: ويغسل أدران أفكارنا وأيامنا لتأتي محلها أخرى:

خريف الجسد

تعلم أنه يتدحرج قربة تطفح بالخيبة والهلوسة والضياع.
يخترق أزقة حي الظلام تائها. تسبقه رغبته الجامحة في
الاندلاق شهوة تسحب معها نتانة حياته.

من نافذة استقرت في النصف الأعلى لباب حديدي بلون
الليل، أطل وجهها البدري باسما. تريثت قبل أن تفتح الباب.
طلبت منه استطلاع المكان. نبحت الشهوة بداخله. وصهل
جسده رغبة في معانقة براري جسدها.

همس بصوت أجش:

-فتحي على حسابي.

تحرك المزلاج مصدرا زعيقا خدش سكينة الليل. دلف إلى
ملكوتها. استدارت لإغلاق الباب. حضنها من ظهرها. وغمر
شعرها المشبع برائحة الجنس قبلا. تملصت منه في غنج.
تقدمته عارضة فتنتها.

منذ أزيد من شهر وهو يشتهيها .تم حجز الكثيرات من "بنات الهوى". خفضت مدة عقوبتهن بدفع غرامة مالية. لم يتسن له زيارتها ب "الحريثة" (1) سوى مرتين.

-على سلامتك.

-الله يسلمك.

ردت باسمة بصفاء.

ولجت غرفة. ألقمت المسجل شريط مجموعة شعبية . سألته :

-كيف حال البحر؟

-ما بحرناش هدا شهر.

علت وجهه تعابير القنوط .قدمت له كأس شاي. رشف بالتذاذ. ملأت لذة شفتيها كيانه، واصطخبت جوارحه بشهوة قاهرة.

أبدى ملاحظة عابرة :

-لازم عليكم تأديو الضريبة!

-يكون خرجوها رسمية وريحونا من كمارتهم.

فرقعت حجارة بصخب على الباب .إحدى نزوات الصبية الغريبة. يرجمون دور" الزريكات". (2) أخبرها أن بعض الدور توكل لها حارسا. خزرته قائلة :

1 - سجن بمدينة الداخلة .يطلق عليه هذا الإسم نسبة إلى وجوده في منطقة تسمى" لحرايث"، و هي عبارة عن قطع أرضية صغيرة كانت تستغل لزراعة الكلأ.

2 - بنات الهوى، وهي كلمة حسانية.

-الله يعفو علينا من هاد الويل.

تبرم نقاشها. أمسك يدها مداعبا أصابعها الرقيقة. استفاق فيه عياء الإبحار. لفته برودته. نال شفتيها الحارتين، وزحف دفؤهما عابثا بأفكاره .تذكر نصيحة أحد البحارة يوم تملكه دوار البحر، وصاحبه أرقه في البر : "ما يقدر على البحر إلا لبحر اللي قوى منه". وكان يقصد جسد المرأة، بكل خفقانه وارتجاجه .ولما جرب حكمة البحار فارقه غثيان البحر ليجتاحه نبض الجسد، ودفقه، وبلوته.

أزال كنزتها الصوفية. نفرا نهديها مترعين بالشبق، والحلم، وهوس العشق. خلصها من باقي ثيابها. ضج جسدها باللقيا تحت قبلاته المتناثرة. ارتج جسده فوق بحر سحرها .أسبلت جفنيها المثقلين باللذة والعبث. وظل يبحر دون أن يطأ مبتغاه. أبعدته متأففة :

-ما خلا فيك برد البحر والو.

-هذا مكتابي.

قبلها. استنامت لدعابته السخيفة .لبت نداءه المعتوه. جذبته. داهمه صدرها المترع بخلاصه .دفن رأسه بين نهديها مغمغما بكلمات مبهمة.

اضطجع منهكا على الحصير. أشعل سيجارة. ناولها إياها. ابتلع رشفة شاي باردة. ثم خلد لغفوة.

أيام غبراء

تغمر شمس بهيجة صباح " أفتاس عين بيضة "فتسحب النوم العالق بالأجفان. ما أن تتخلص الأجساد من مناوشات البرغوث الليلية، حتى يداهمها طنين الذباب. يلتقط بوعبيد واحدة مغمض العينين .يسحقها مغتاضا. يتقلب في فراشه درءا لبداية يوم عاطل. يجفوه النوم .تطل سحنته المدبوغة بالأرق. ويجول ببصره متفقدا المكان.

يطبخ عمر الشاي على النمط الصحراوي .يتابع غليانه على نار هادئة ليصير مركزا ومدبوغا من فرط الحرارة كأيامهم التافهة. يسأله بوعبيد :

-ما بحر حد هاد الصباح؟

-واش ما جايب خبار .. راه طرات فضيحة ليوم !

يخبره سريان شائعة وضع صبي لتوأمين، و قيام رجال البحرية بالتحري. قرروا عدم السماح بالإبحار حتى يدان الجاني.. ضربه بوعبيد بالمخدة وهو يكركر.. يدرك ظاهرة اللواط التي تعم أفتاسات. لو حبت الطبيعة الصبيان بأكياس حمل كفرس البحر لفاقوا المرأة خصوبة تحت هذه الخيام الموبوءة.

تناول بوعبيد فطوره وسرح خارج الخيمة. يرمح الموج باتجاه الشاطئ، عند كبواته تتولد خراف نزقة سرعان ما تتلاشى. يتقلص الوجود إلى أنين ممض، تتخلله تنويعات صوتية لا تزيده سوى ثقلا ورتابة .للحرارة صوت مكتوم يوحي بالانفجار. تتمادى الطبيعة في قسوتها .تطبق حصارها. ما أن يتنفس النهار حتى تدهمه الزوابع الرملية.

رجع بوعبيد أدراجه مبلبل الخاطر، حانقا .فضفضة الخيمة، طنين الذباب، صوت الريح الأخن، انكسار الموج ..كلها تسحب ما تبقى من صبر .تكر الرياح الشرقية محملة بما تطاله من غبار ..تكشط الأرض ..تطبق بحمولتها على البحر ..تفقده معالمه ..وتكبس عليه بعتمة تكاد تلمس.

يقضم بوجمعة كسرة خبز حاف. استبد بهم الغيظ من تغيب ممولهم ابراهيم. انقطع اتصاله بهم. نفذ المـاء والمؤونة. يتدبرون أمرهم كيفما اتفق .لكن ما يضيرهم شماتته بهم. أطنب في مدح امتيازاته، واليوم يخون مسؤوليته ولا يأبه بوجودهم.

طنجرة البيصارة تطبخ مصدرة ضجيج فرقعاتها .إنها الحل الأمثل لأزمتهم، ورغم أن الزيت ينقصها تبدو شهية. يدقق بوعبيد النظر في ذبابة. يسأل كم عدد أرجلها :

-أربعة..

-ستة..

يحاولون اصطياد واحدة قصد التأكد. يتحول البحث إلى رغبة في إمساك أكبر عدد منها. يشاركهم فضاء الخيمة طائر بصغر حجمه ورشاقة حركاته .لاذ بخبرته متغذيا على الذباب. أخذ كامل حريته دون وجل. يأنسون وجوده مالين لعبتهم السخيفة.

يلج الريس المعاشي الخيمة صحبة شخص ذو ملامح شمالية بهيئة المكدود. ينزوون كيفما اتفق. قدم لهم عمر كأسي شاي، وسألهما بوعبيد بروح الدعابة :

-واش بصح ولد شي دري جهتكم؟

-قريب انشاء الله . رد المعاشي.

أخبرهم الشمالي الملامح، بلكنة ريفية، عن صراع الرايس احماد مع أحد بحارته حول صبي. ادعى الريس أنه يخصه. احتضنه بسخاء. لكن بحاره استغله لفراشه. حضر المودن والفقير. التقطا بقية الحديث. تدخل الفقير بفتواه :

- -الشلح والشياظمي والشيطان، بثلاثة تيبداو بالشين، هما اللي يديرو هاد الفعايل.

رد عليه المودن مستويا في جلسته :

-بنادم بطبعه ضعيف، ما فيه لا شلح ولا شياظمي.

أقر عمر برأي المودن .وذكر بوعبيد الفقير بسؤاله الدائم عن طفل وصل صحبتهم في الشاحنة لأفتاس، وقلد طلبه" آوليدي آعمر ما نعرف فين مشى داك الدري."

علق المودن ساخرا :

-كان بغى يتيمم عليه.

حاول الفقير تهدئة الأمر مداريا تورطه :

-اتقي الله آ المودن ..راه عليك أمانة الجامع.

-ما نطقت غير بالحق ..والحق ما تيحشم منه غير الشيطان.

استمر حديثهم متحلقين حول صحن البيصارة. لديهم خصاص في الخبز. أتموا الأكل بالملاعق. واكتفى المودن وبوعبيد بالشاي. غادر المعاشي الخيمة رفقة صاحبه بعد أن زود بوعبيد ب "جوان".

-كرمك الله آالفقير بالبيصارة .قال المودن.

-الله يخلف عليكم.

-تستاهل كثار آبا الفقير ..غير ذاك ولد الكلب نسانا.

-ما يهمش آولدي ..كل شي غير رزق الشوف، اما رزق الجوف يبات فيه.

-حتى رزق الجوف حرمنا منه.

خرج بوعبيد، وانشغل الآخرون بلعب الورق. تصل سيارة "إسيزي" لتموين بحارة السرغيني. تتوقف بعد سير وئيد. تتخلص من حمولتها .التذمر باد على السرغيني .تموين دون سلعة .لم

يعد يتسقط أخبار البحر .الجو كفيل بإبلاغه .تتحرك السيارة .يتضاعف جئيرها بشكل متصاعد .تزفر مندفعة بقوة جنونية منتشلة نفسها من فضاء أطبق عليه النكد.

"كاب جوبا البيضاء" تهادن الموج باستلقائها مجردة من قدرتها .منغرسة في رمال الشط. تدفن معها سر جنوحها. تأسر ذكريات إبحارها. تكتم في جوفها الصدئ انفعال طاقمها ساعة الكارثة. ربما ذهبت ضحية شريط رملي، يمتدٍ بعيدا عن الشاطئ، يكمن مشكلا حاجزا من الموج الصاخب.

يفكر بوعبيد أن حروف البحر : ب، ح، ر، تشكل حقا كلمتي : حرب/ربح .عالم قائم بذاته هي حياة البحر والبحارة ..ضد السلطات و"لارماتورات"(1)..ضد الربح و الخسارة.. حرب ضحيتها البحار . .

يعيش يومه منفصلا عن باقي الأيام، ماض مكتوم ومستقبل ملغوم .لم يكن صادقا معه سوى البحر ذاته ..حدد له خطاب إنذار صريح" ما تعول علي، ما تحيدني من بالك ."

يعيد إشعال عقب سيجارته .تؤرقه مسئوليته كريس لبوجمعة وعمر. تحضره سحنة ابراهيم بثقل بشاعتها، بما اختزنته من وضاعة ونذالة .ما يعتمل في نفسه أكبر من حصره في كلمات .

1- أصحاب الشركات والممولين

قبيل المغيب تتراجع حدة الرياح مخلفة ألما في العين وضيقا في النفس. يمتص الأفق الأغبر حمرة الشمس. حَفرّت الكلاب لنفسها، على الشاطئ، مآويها اتقاء للريح وطلبا للبرودة. طيور النورس لا تظهر سوى صباحا قبل هبوب الزوبعة التي توحي باستمرارها .أخطأوا ولم يسموا هذا الشاطئ "عين كحلة."

تتقدم سيارة مرتجة .ضوء فوانيسها ضئيل .يتعرف بوعبيد على ابراهيم الجالس بجانب السائق. يلقبونه "ملابطا". حقيقة هؤلاء الأشخاص تضاهي سم هذا النوع من السمك. يغلي الحنق في عروق بوعبيد. تستريح يده على عمود. تلتحم أصابعه به. تأخذ السيارة مكانها بين الخيام. يترجل ابراهيم .يقصد بوعبيد الذي يزداد رسوخا في مكانه. يبتسم ابراهيم مداريا فعلته، انفعاله، تخوفه من مزاج البحارة العكر. يمد يده مصافحا. تدوي العصا في رأسه مواويل غضب عنيف. تفقد النظرة بريقها. تخبو البسمة. يترنح الجسد وينكفئ صادما في سقوطه أحد البراميل.

رمال ملغمة

لم أفكر يوما أن لكل نهار وجه، سحنة، ملامح تطبعه .بدا الصباح جميلا، فتنة، يشدني للامتلاء منه، للنهل حتى الفرح من روعته. تتربع شمسه بجلال صفاء السماء البلوري. تنثر بسخاء ذراتها المشعة، دافئة، على امتداد صحراء وبحر "كوربيرو". تتوهج الرمال، وتتراقص موجات البحر في حركات عذبة تنبض بالطراوة. متعة افتقدناها لأيام.

أنسل من بين انكسار الموج على "الشمبرير". تخفق قدماي بالمسباح كطيور الماء. يشعرني الإنزلاق دون مقاومة الموج بالارتياح. يخفض البحر جناح حنانه، يستقبلني دون مشاكسة. خبرت صراعه وعهد روح المغامرة المتولدة بداخلي. قرر أن يمن علي بعطاياه. اكتملت روعته لما بدت السمكات في أعين الشبكة، فضية.

يدهم أذناي صوت عميق، رهيب .تتلاشى البهجة .يَسْود النور في عيني .ضربات قدماي تتسارع. أحس قواي تتحلل في الماء. تضمحل .صرت سمعا مشدودا للبر .الدوي الصاعق، المسعور، يحيل الصحراء وحشا فاغرا فاه. من عساه يكون هذه المرة؟ لا أود التصديق. تتدافعني الأمواج عند انكسارها. تسرع بي للخروج .أسحب العوامة إلى الشاطئ وأركض.

عبرت الامتداد الصخري. على رمال الصحراء اكتنفني الحذر. أدقق في موضع خطواتي. خيامنا الثلاث تقترب .كل شبر من هذه البيداء يصير مسافات لا حصر لها. يقف الوجدي أمام خيمته. يغص حلقه بالنداء. يشعر بقدومي. ينظر إلي.. استفسرته نظراتي. حالتي. لفظ كلمات.. لفظ ألما وقهرا :

-عزيز طارت له رجله..

كوربيرو موطن الفجيعة. لغم آخر. ضحية أخرى. إيقاظ لشبح رهيب. سيستوطن الهلع والرعب ذواتنا. نعيد ترتيب حساب حركاتنا. مع كل خطوة نطوح بأرواحنا في هذه الفلاة.

لم يقو الوجدي على مواجهة الموقف. كان يلحق بعزيز حين اهتزت الأرض من تحته. جاء بحثا عن النجدة. خفت نوبة الصدمة. شجعه قدومي. اتجهنا صوب موقع الحدث.لازال عزيز يسحب جسمه. لم يزعم أحد للتقدم إليه. بجانب كل لغم تكمن ألغام. ساقه اليمنى أتلفت .توارى الدم من وجهه .عيناه بؤرة من عدم التصديق. مطفأتين.. ينز منهما الإنكسار .الساق كتلة معجونة بالدم والرمل .تمالكت نفسي بعد حالة دوران ألمت برأسي. انطلق لساني مشجعا ومواسيا ضمن الأصوات :

- غير بشوية.. ما تخافش.. هكداك..بقا فبلاصتك...

نضحت نظراته بالاسترحام.. بالأسى.. يشد نفسه بنا من خلالها. يتقوى بما لديه من إحساس بالمؤازرة. زحفه يسحب

معه شغاف القلب .يصرخ في عجزنا ..في الحمق البشري الذي حصد رجله.

محرك سيارة جيب يسرق استغراقنا . تتقدم متقافزة. تتوقف. ينزل جنود البحرية رفقة جنود المشاة. يجس أحدهم الطريق بآلة رصد الألغام. تساعدهم على الاقتراب. يطمئنونه. نثبت في أماكننا. يضعه إثنان على نقالة ويغادران.

-تفو على رزق معلق.

لم ننتبه لأي صوت لفظها. عبارة مملوءة بالفجيعة، بالسخط، بالرغبة في انفجار الذات بدل انتظار حتفها. بدا أنها صدرت عنا جماعية، من وحدة المكان والمعاناة.

..بكامل الثقة تحركت فوق أرض خبرتها. أربع سنوات من التحدي. تعايش دائم مع الموت برا وبحرا. خانتني الرمال. انخدعت في تقديري.. أذهلتني المباغتة.. أخذتني غدرا.. رُوع جسدي.. شعرت بمفاصلي تنخلع.. دوت بذاتي كل خلية.. ربما للخلايا ذاكرة لن تنس ما حدث.. ثنايا جسمي تستريح للألم.. تردده كأسطوانة علقت إثر دورانها.. صعقني الهلع قبل الآلام.. ثم دهمتني.. حسبت نفسي مفقودا يعد لحظاته المتبقية.. تجمع خفقان الجسد في ساقي.. صارت تنبض مسعورة.. ينهشني انسحاقها.. وبكيت..

سفحت دموعي حارقة، امتصت نصيبها من الإنفجار. جرفت الكثير من وجودي.. جل الأحلام تشظت. تلاشت الآمال، زحفت مبتعدة، كسيحة . ترف وجوه أسرتي يأسرها الانتظار. لم يكن اللغم رحيما معي. عز عليه أن يتلف بقية جسدي. أية أعجوبة سأعود لوالدتي. ستبكيني، تحرق ذاتي بلوعة نحيبها. ليتها ثكلتني...

امتدت يد الرقيب بسيجارة . أوقد الولاعة، وربت على كتف عزيز معزيا .أسر بدواخله :

-ما شي بعيد حتى أنا شي نهار ما رجعش لولادي.

تطلع إليه عزيز .عيناه خاليتان من أي تعبير سوى الامتنان.

انتشرت المجموعة لكشف الألغام .تبوح الآلات بالسر الدفين. تعريها. تفضحها. أسطوانات تحبل بالخزي والعار، بالرعب والموت. تكمن كالقدر المريع أيادي الفتك هذه. تم استخراج ما يفوق العشرة ألغام. معدل يتجاوز لغمين للواحد منا. تحيط مجال تحركنا . قابعة . متربصة.

لم يسمحوا لنا بفترة إستعادة هدوئنا، للتفكير في الحدث. أصدروا أمرا بإخلاء المنطقة . وأبلغونا بنقل عزيز للداخلة بعد إسعافات أولية.

تنكسر الشمس في غروبها مخضبة الأفق. تشمئز نفسي من لون عشقته. خلت قرصها يرشح دما. يسعى لجعل الأرض مضرجة به.

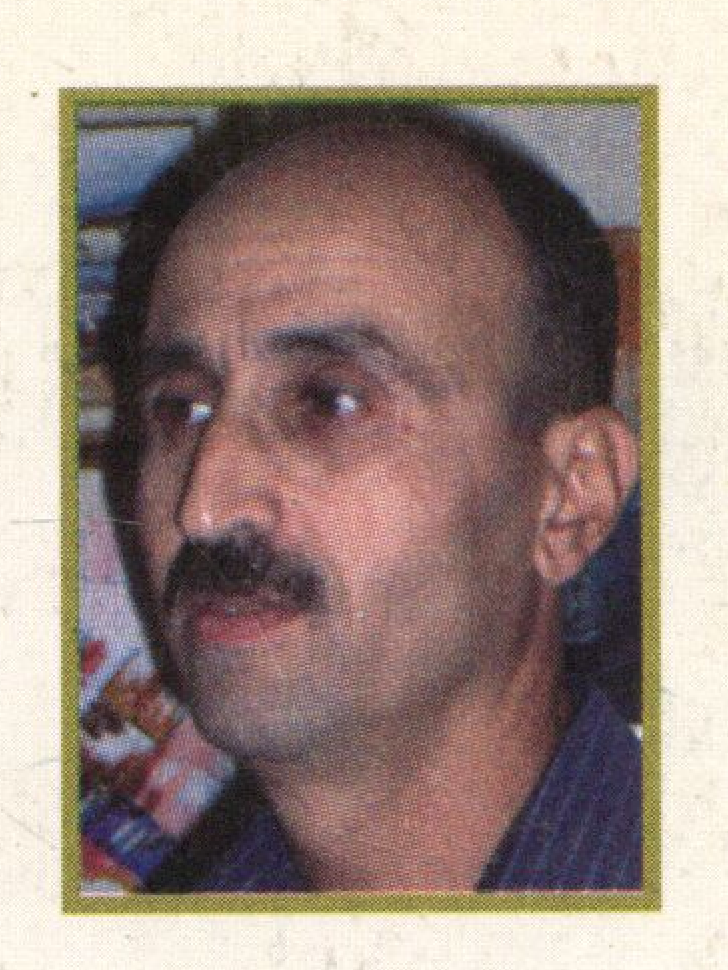
سحبنا شباكنا من البحر. لحظة وداع عسيرة بعد أن فتح الأزرق حضنه. أعددنا للرحيل. يسودنا الصمت والإجهاد. لم تستسغ نفوسنا الأكل. وانزوينا كل في مكان.

تمنيت لو أسرع الظلام في زحفه، ليخفي معالم الفاجعة. لكن أي ظلام يمكنه تغليف الذاكرة.

اقتربت الشاحنة متهادية بأنوارها .سيحدس صاحبها ما حدث . لقد خبر حياة الصيادين . داوم على لوك نصائحه لأخذ الحيطة. في بقائنا استمرارية لرزقه. هامت نظراته .لم يبد أي تعليق سوى قوله :

-لا حولة ولا قوة إلا بالله.

حملنا أمتعتنا وغادرنا ..يثقلنا التوقع ..وتتقادفنا الهواجس.



ولد سنة 1964 بدوار الصغير، ناحية وزان.
حاصل على الإجازة في علوم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - بالرباط. يعمل مسؤولا تجاريا بمدينة العيون.

عن بعد، يخوض في الماء ثمانية أشخاص. يحمل اثنان منهم "هزدوز". تصارع ميمونة لحظة امتطائها موجة مناسبة. يستقرئ الريس هذه اللحظة الموتورة. يلاعب زحف الكتل المائية. تتقدم صاخبة في تشكلها لتتفجر ببياضها المزبد على الشط. تعتلي الفلوكة المناسبة منها. يوازن الريس قيادته مع قوة دفع الموج. قبل الانكسار تنسحب ميمونة منتزعة هدأة وسط صخب الفلك. ثم تخترق سطح الماء بقوة لترسو بالشاطئ. يحيط بها أصحاب "هزدوز" مسرعين. يقفز البحارة لمساعدتهم. يثبتون معا "هزدوز" في جؤجئ ومؤخر الفلوكة. يخطفونها من بطش الموج. ويتحركون تحت ثقلها متراقصي الأجساد.

الثمن :
20 درهما